د. محمد مصطفى حسانين

رؤية الأشياء كما هي «نظرية للإدراك»

«قد يندهش فيلسوف مريخي عند زيارة الأرض من مقدار الاهتمام المخصّص للهلوسات في المناقشات الفلسفية الدائرة حول الإدراك، وبالتالي فقد يستنتج -على نحو معقول- أن الهلوسات لابد من أن تكون بالغة الشيوع. لكنها نادرة جدا في واقع الأمر. وبقدر ما أعرف، فلم يسبق لي أن عايشت هلوسة طوال حياتي. أما الحالات الواقعية التي يسمع بها المرء ويقرأ عنها، فعادة ما تكون إما مرضية وإما ترفيهية».

جون سيرل

تبدو عبارة جون سيرل ممعنة في سخريتها، لكنها واقعيا تكشف عن مغالطة درامية في الفلسفة الغربية منذ القرن السابع عشر حتى الآن، فبناء على ما أطلق عليه الحجة من الوهم، تم إنكار الفلاسفة للواقعية المباشرة في إدراكنا للعالم، إذ يبدو وكأن هناك استحالة في رؤية الأشياء كما هي في العالم الحقيقي، فنحن وفق هذا الفرضية لا نرى سوى تمثيلات للعالم، فما دمنا لا نستطيع التمييز بين الرؤية الحقيقية والهلوسة فينبغي أن نقر بالتمثيلات فقط.

يعالج كتاب الفيلسوف الأمريكي جون سيرل «رؤية الأشياء كما هي نظرية في الإدراك) الصادر ضمن عالم المعرفة، بترجمة إيهاب عبد الرحيم علي، «موضوع الإدراك» مركزا على الرؤية أو الإبصار وعلاقتها بالمعرفة والإدراك والقصدية، وأثر مناهضة الواقعية المباشرة على نظرية المعرفة. فالتجربة البصرية تعدُّ مصدرا للمتع الحسية، كما أنها تمثل أهم أنواع الخبرات. لذلك؛ كانت واحدة من أهم شواغل الفلسفة الغربية طوال قرون ثلاثة تلت ديكارت حتى وقتنا هذا، خاصة لعلاقة الرؤية بنظرية المعرفة (الإبستيمولوجيا Epistemology).

ومن منطلق مراجعة الفلسفة لنفسها، يرى

سيرل أن الفلسفة لم تتغلب دائما على أخطاء الماضي؛ فكثير من هذه الأخطاء ما يزال معنا، وأسوأ هذه الأخطاء مجموعة وجهات النظر المعروفة باسم الثنائية، والأحادية، والوظائفية، والسلوكية..وتتشارك هذه النظريات جميعها في أن هناك مشكلة حول العلاقة بين (العقل والجسد/ الوعي والدماغ). وهناك خطأ بالضخامة نفسها ساد التقاليد الغربية منذ القرن السابع عشر، وما بعده. «وهو خطأ الافتراض أننا لا ندرك الموضوعات والظروف الجارية في العالم بصورة مباشرة، وأننا لا ندرك إلا تجاربنا الشخصية. وقع في هذا الخطأ كثير من الفلاسفة، ومن بينهم ديكارت، ولوك، وبيركلي، ولايبنتز، وسيبنوزا، وهيوم، وكانط، لكنه ازداد سوءا بعد كانط، وكذلك ميل، وهيغل..(ص ٣٠).

الواقعية المباشرة أو الواقعية السّاذجة

في مقابل ذلك، يحاول سيرل إثبات مغالطة الفرضية التمثيلية، وإثبات صحة ما عرف بالواقعية المباشرة. ويبدأ من مسلمة أساسية، تتمثل في الوجود المستقل للأشياء والظروف، بمعنى أنها موجودة بشكل مستقل عن معايشتنا لها، فحتى إذا أغمضنا أعيننا فسوف يستمر وجود الأشياء والظروف. وعند رؤيتها تكون لدينا تجارب بصرية واعية جارية في رؤوسنا. ومن هنا، يخلص سيرل إلى وجود عنصرين متمايزين هما: «الظروف الموضوعية أنطولوجيا التي تدركها مباشرة، والتجارب الشخصانية المتعلقة بها»(٢١).

وتدل الواقعية المباشرة أو الواقعية الساذجة naïve realism على المنظور القائل بأننا ندرك الموضوعات والظروف مباشرة، ويطلق على المنظور اسم الواقعية؛ لأنه يشير إلى امتلاكنا لوصول إدراكي للعالم الحقيقي. ووصف «المباشرة» لأنه ينص على أننا لا نحتاج أولا إلى إدراك أي شيء آخر لكي ندرك العالم الحقيقي من خلاله. وكثيرا ما يتناقض هذا المنظور مع الواقعية التمثيلية representative realism، التي تقول إننا ندرك تمثيلات (صور) العالم الحقيقي، وليس الموضوعات الحقيقية نفسها. ويطلق عليه أحيانا الواقعية السّاذجة؛ لأنه يتجاهل الحجج المعقدة، مثل القول بأننا لا يمكننا إدراك العالم الحقيقي بالفعل.

لكن لماذا رفضت الواقعية المباشرة؟ هناك حجة محورية يطلق عليها سيرل بأنها الخطأ المحوري لنظرية المعرفة الحديثة، بل أكبر كارثة منفردة نبعت منها كوارث كثيرة، تسمى هذه الحجة بأشكالها المختلفة الحجة من الوهم the argument from illusion، ويمكن وصف تلك الحجة بأشكالها المتنوعة على هذا النحو: «في المشهد، أنا أتخيل أنك ترى طاولة فوقها كتاب والتجهيزات المحيطة بها، لكن لنفترض أنك تعاني هلوسة! لنفترض أن المشهد بأكمله لم يكن موجودا في الواقع، لكن تم بتجربة بصرية هلوسية لا يمكن تمييزها عن رؤية مثل هذا الواقع» (ص ٢٩). بموجب تلك الفرضية، لا يمكن تمييز التجربة في حالة الهلوسة عن التجربة في الحالة الحقيقية. ذلك لأننا إذا أردنا الاتساق

فينبغي ما نقوله عن حالة الهلوسة نقول مثله عن الحالة الحقيقية. بسبب كون الحالة الجيدة والحالة السيئة متماثلتين معرفيًا، لذلك ينبغي خضوعهما للتحليل نفسه.

هناك نسخة حديثة من هذه الحجة، تطلق على نفسها الحجة من العلم the argument from science، وتعتمد على تفسير علمي للإدراك يظهر أن مدركاتنا تنتج بالكامل عن سلسلة من العمليات العصبية التي تبدأ بتحفيز الخلايا المستقبلة للضوء في الشبكية retina عن طريق الفوتونات المنعكسة عن الموضوعات الموجودة في العالم. وعلينا هنا الاستنتاج بأن ما نراه هو صورة أو بيان حسي، إذ لا نرى سوى سلسلة من الأحداث الناتجة عن تأثير العالم الحقيقي، عن طريق انعكاسات الضوء على جهازنا العصبي، ومن هنا، يمكن دحض الواقعية المباشرة مرة أخرى.

لقد كانت تلك الحجة المركزية أساس تشكيل نظرية المعرفة منذ القرن السابع عشر فصاعدا، وكان من عواقبها الوخيمة أن الحقيقة الوحيدة التي يمكننا الوصول إليها من هذا التفسير هي الواقع الشخصاني لتجاربنا الخاصة، مما يجعل من حل المشكلة الشكوكية ضربا من المستحيلات، إذ كيف يمكننا، على أساس الإدراك، أن نعرف أي حقائق عن العالم الواقعي؟

يفند جون سيرل هذا الحجة بعدد وافر من التحليلات، منها أنه ينبغي وضع علامات اقتباس تحذيرية حول «يرى» عندما نصف «الرؤية» الهلوسية هو أننا بالمعنى القصدي، لا نرى أي شيء في مثل هذه الحالات. إذا كنت أواجه هلوسة بصرية لوجود الكتاب على الطاولة، فإنني فعليا لا أرى أي شيء. هناك أيضا لبس بين مضمون الحالة القصدية وموضوع الحالة القصدية. في حالة الهلوسة، للتجربة البصرية مضمون، بل قد يكون لها مضمون التجربة الحقيقية نفسه بالضبط، ولكن ليس هناك موضوع.

ويسخر سيرل من تراكم هذه المغالطة في التقليد المعرفي، فعدم قدرتنا على إدراك

العالم الحقيقي بصورة مباشرة أشبه بمن يحاول تطوير الرياضيات دون وجود للأرقام!! والسؤال كيف يمكننا الحصول على المعرفة بحقائق العالم إذن؟ سيبدو الأمر وكأننا ظللنا نشاهد فيلما واحدا للأبد! لكننا لا نستطيع مغادرة قاعة السينما!

صدى هذه المغالطة نراه في فكر ديفيد هيوم الذي يخبرنا بأن كل ما يمكننا إدراكه على الإطلاق هو انطباعاتنا الشخصانية وأفكارنا الخاصة، وأن الفرق بينهما، كما يخبرنا، يتعلق بالقوة والحيوية، فالانطباعات تكون أشد قوة، أما الأفكار فهي أقل منها في ذلك. (ص ١٠٢). وعندما ننتقل إلى كانط، سنجد أن التأثير أكثر دراماتيكية، ففي الصفحات الأولى من كتابه «نقد العقل المحض»، يفترض صحة الحجة السيئة، ويساوي بين الموضوعات والتجربة.

قصدية التجربة الإدراكية:

ولكي يشيد بناء نظريا متماسكا حول الإدراك المباشر للعالم، يربط سيرل الرؤية أو الإبصار بمفهوم القصدية Intentional، الذي يتخذ بعدا بيولوجيا لديه، إذ يدل على «السمة العقلية الموجهة إلى أو حول أو عن الموضوعات والظروف في العالم. إن الجوع، والعطش، والمعتقدات، والتجارب الإدراكية، والنوايا والرغبات، والآمال، والمخاوف، كلها قصدية؛ لأنها تتعلق بشيء ما..(ص ٢٢). ولهذا فإنه يمكن للحالات القصدية، مثل المعتقدات والرغبات، أن تنجح أو تفشل، وإذا نجح الاعتقاد فهو صحيح؛ وإذا نجحت الرغبة، فقد أشبعت.

وهناك سبب عميق لكون وصف التجربة الشخصانية يجب أن يتطابق إلى حد بعيد مع وصف الواقع الموضوعي: للتجربة الشخصانية مضمون، وهو ما يسميه الفلاسفة المضمون القصدي Intentional Content، حيث تكون موصفات المضمون القصدي هي نفسها التي تصف الظروف التي يصورها لك المضمون القصدي.

لقد جادل بعض المنظرين بأن التجارب البصرية تفتقر إلى القصدية، ويرى سيرل أن هذا الرأي يبدو صاعقا! لأن التجربة الإدراكية «جنبا إلى جنب مع الفعل القصدي والأنماط البدائية بيولوجيا مثل الجوع والعطش، هي نموذج القصدية، أما الأشكال الأخرى من القصدية-مثل المعتقدات-فهي مستمدة في معظمها من قصدية التجارب الإدراكية»(٦٥). باختصار فإن للتجارب البصرية أربع سمات كافية للقصدية، أولاها المضمون القصدي للتجربة، ثانيها، اتجاه المطابقة، فمن المفترض أن المعتقدات تمثل كيفية سير الأمور في العالم، ثالثها شروط الإشباع؛ فالتجارب الإدراكية مثل المعتقدات، والمقاصد، والرغبات، إما أن تشبع أو لا. ومن هنا، سيبدو العالم متوافقا أو غير متوافق مع الطريقة التي يبدو لي بها من الناحية الإدراكية، أخيرا، الانعكاسية الذاتية سببيا، أي وجود علاقة سببية بين الحالة القصدية والعالم الخارجي. ومعنى ذلك، أن التجربة البصرية البشرية هي تصوير وليس مجرد تمثيل. إذ تمثل كيانا مستقلا يمثل الموضوعات والظروف التي أراها. لكن هذا لا يهني من جهة أخرى، فكرة أنه مادام الجهاز البصري سليما، فستعايش التجارب نفسها مثل غيرك من الأشخاص الذين يمتلكون أجهزة بصرية سليمة، في ظل المحفزات نفسها، أو ما يعادلها. فالمحفز نفسه يمكنه أن ينتج تجارب شديدة الاختلاف. على الرغم من أن المرء لا يعاني من فشل في الإدراك البصري.

كيف تعمل القصدية الإدراكية

يرتبط الإدراك البصري على هذا النحو بالقصدية من جانبين، أي ما يخص الوضع الفينومينولوجي للتجارب خاصة عملية الإشباع، وما يخص الوضع السببي للقصدية. لقد أفرد سيرل الفصلين الرابع والخامس لإجابة سؤال: كيف تعمل القصدية الإدراكية من الجانبين. فيما يخص البعد الفينومينولوجي يطرح سيرل السؤال الآتي: كيف تحدد الفينومينولوجيا الإدراكية للتجارب، خصوصا المرئية شروط إشباع التجربة البصرية؟ ويكشف سيرل عن صعوبة السؤال وتنوع الفرضيات الفلسفية حوله، ساردا مراحل تطوره الفكري والفلسفي في معالجة السؤال الصعب. لقد مر بخمس مراحل تبدأ من كتابه (القصدية ١٩٨٣) حتى كتابه الراهن: رؤية الأشياء كما هي. وفي هذه المرحلة الأخيرة يبدو سؤاله أكثر دقة -حسب رأيه-: كيف تسير الأمور، وما التجارب التي تسببها؟ يفترض سيرل في الخلاصة الإجمالية، وجود شكل محدد من القصدية البصرية واللمسية، وبالنظر لذلك نحن في حاجة لأربع خطوات هي: أن الإدراك يتسم بالتدرج الهرمي، بمعنى أن التجربة البصرية للأسوياء غنية في محتواها القصدي، إنني لا أرى مجرد ألوان وأشكال، لكني أرى سيارات منازل. وفي الواقع إنني لا أرى فقط سيارات ومنازل، بل أرى سيارتي ومنزلي. وأن للتجارب الإدراكية قصدية باطنية محددة. وأن المجال البصري الشخصاني على علاقة سببية قصدية.

في إجابة الشق الثاني من سؤال كيف تعمل القصدية الإدراكية في حالة السببية القصدية التصويرية يتابع سيرل في الفصل الخامس، منطقه التحليلي، إذ يرى أننا نعايش التجربة البصرية بوصفها ناجمة عن موضوعها، ويعايش المقصد الجاري التنفيذ بوصفه المتسبب في الحركة الجسدية، ويمكن معاينة ذلك في مظاهر الإدراك البصري، التي تتمثل في الإدراك البصري من أسفل إلى أعلى، والمدركات البصرية ثلاثية الأبعاد، والربط الزمني وفق الأسبقية للصور قبل وبعد.